ظاهرة التثنية في اللغة العربية

بقلم الدكتور محمد شفقت الله *

تنطق على الربع المسكون حوالي ستة آلاف لغة، وتقوم تلك اللغات بالتعبير عما في الجنان البشرية، وكل لغة من اللغات كائن حي، ولم تزل اللغات ولا تزال مستعملة لدى النوع البشري، ومن اللغات ما صار مماتة أو شبه مماتة على مر الأيام وتوالي العصور، لما عرض لها ما أبادها أو قلل نفوذها، وبعض اللغات معروفة وبعضها غير معروفة، أو يمكن أن نقول أقل أهمية أو أضيق نطاقا، وقد أدت اللغات دورا فعالا لإتمام الحاجات البشرية ودعم أواصر القرابة ومواصلة الروابط الأخوية والودية والعلاقات الدينية والوطنية وما إليها، كما أن اللغات قامت بتنشيط حركة الترفيه والرقي للركب الإنساني في التاريخ البشري لأنها كانت الوسيلة الجوهرية لنقل الآراء والأفكار وتسجيل الحقائق والمعلومات وحفظ العلوم والمعارف وتعميم التربية والتعليم، وكما أن الشعوب والأقوام تختلف بعضها عن البعض باختلاف المواطن والأقطار والأنساب والأحساب، والألوان والأجسام، وملامح الوجه، ومخايل الطبع، ومظاهر الحضارة وفعاليات الثقافة فكذلك اللغات البشرية المنطوق بها على المعمورة تمتاز بميزات خاصة لكون كل منها كائنا

---

*) أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية في جامعة بهاء الدين زكريا (ملتان).

حيا فتوجد في بعضها ثروة لفظية كبيرة، من ناحية القرابات الأصلية والفرعية، وما يشبهها، وبعض اللغات تختص بالرصيد اللغوي الثري بالألوان العديدة المختلطة بعضها ببعض والمختلفة عن غيرها تمام الاختلاف طبيعة كانت تلك الألوان أو اصطناعية، ومن اللغات ما يستأهل لعذوبة ثروتها اللغوية أن تستميل إليها القلوب، وتجلب الأفئدة، وتلفت الخواطر كما أن هناك لغات تصلح لبيان المواد العلمية نظرا وإطلاقا وجديرة بتوضيح مسائل التكنولوجيا المعاصرة جدارة وافية تفي بما احتاج إليه المهتمون بفهمها والقائمون بإفهامها.

ومن الخصائص التي تتميز بها كل لغة عن سواها من اللغات هو نظامها من حيث الصرف والنحو إذا الخصائص الصرفية والنحوية الخاصة بلغة ما قد لا توافق الخصائص الصرفية والنحوية الخاصة بلغة أخرى، وبما أن ظاهرة التثنية تتعلق بالنظام الصرفي والنحوي، ومن المعلوم أن صرف لغة ونحوها لا تخضع لقوانينها مفردات لغة أخرى، فتنقسم اللغات من حيث وجود ظاهرة التثنية وعدمها فيها إلى قسمين إلا أنه لا بد من تحديد التثنية لغة واصطلاحا قبل الكلام في وجودها في بعض اللغات وعدمها في بعضها الآخر.

التثنية لغة واصطلاحا:

التثنية لغة تفعيلة من مادتها الأصلية وهي الثني، والثني ناقص يائي باعتبار الحروف التي تكون منها لأن لامه ياء كما أنه ثلاثي مجرد باعتبار الحروف التي تألف منها وحروفه الأصلية هي ثاء معجمة فوقها ثلاث ونون معجمة فوقها واحدة، وياء معجمة تحتها اثنتان، ويأتي

ماضيه ومضارعه من الأفعال الثلاثية المجردة على قياس رمى يرمى أي ماضيه مفتوح العين ومضارعه مكسور العين.

قال ابن دريد ثنى كل شئ طيه[١]، وقال الجوهري: وثنيت الشيء ثنيا أي عطفته ....، وثنيته أيضا، صرفته عن حاجته وكذلك إذا صرت له ثانيا وثنيته تثنية، أي جعلته اثنين [٢].

وقال الفيروزي آبادي المتوفى سنة ٨١٧هـ، ثنى الشيء رد بعضه على بعض فتثنى وانثنى: انعطف[٣]، وصرح الشيخ أحمد رضا، بأن ثنى الشيء يثنيه عطفه ورد بعضه على بعض، وهو الأصل في المعنى، وثناه صار له ثانيا، فهو ثاني اثنين، وزاد عليه قائلا : الثاني الذي يتلو الواحد من الأفراد[٤]، وذكر سعيد الخوري الشرتوني في توضيح الكلمة قائلا: .....هذا واحد فاثنه أي كن ثانيه....، هذا ثاني اثنين أي هو أحد الإثنين، ...، وثنى الكلمة ألحقها علامة التثنية[٥]، وورد في المعجم الوسيط ثنى الكلمة ألحق بها علامة التثنية [٦].

التثنية اصطلاحا:

التثنية تسمى المثنى أيضا، وهو في اصطلاح النحاة اسم يدل على اثنين وينبني بزيادة ألف ما قبلها مفتوح ونون مكسورة في حالة الرفع،

---

[١]-جمهرة اللغة ٥٢/٢.

[٢]-الصحاح ٢٢٩٤/٢، ٢٢٩٥.

[٣]-القاموس المحيط ٤٤٧/٤.

[٤]-معجم متن اللغة ٤٥٣/١.

[٥]- أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد ٩٦/١.

[٦]- المعجم الوسيط ١٠١/١.

كما أنه ينبني بزيادة ياء ما قبلها مفتوح ونون مكسورة في حالة النصب والجر، وعرف ابن يعيش التثنية قائلا:

اعلم أن التثنية ضم اسم إلى اسم مثله واشتقاقها من ثنى يثنى إذا عطف يقال : ثنى العود إذا عطفه عليه، فكأن الثاني معطوف وأصلها العطف، فإذا قلت قام الزيدان فأصله زيد وزيد، لكنهم إذا اتفق اللفظان حذفوا أحد الاسمين بلفظ واحد وزادوا عليه زيادة تدل على التثنية فصار في اللفظ اسما واحدا، وإن كان في الحكم والتقدير اسمين وكان ذلك أوجز عندهم من أن يذكروا الاسمين، ويعطفوا أحدهما على الآخر، فإذا ثنوا الاسم المرفوع زادوا في آخره ألفا ونونا، وإذا ثنوا الاسم المجرور أو المنصوب زادوا في أخره ياء مفتوحا ما قبلها ونونا مكسورة فيكون لفظ المجرور كلفظ المنصوب [1]، وعرفه ابن الحاجب قائلا: هو اسم لحق آخر ألف وياء مفتوح ما قبلها ونون مكسورة ليدل على أن معه مثله من جنسه.

وكتب عز الدين التنوخي في خلفية التثنية اللغوية قائلا : أن المراد بالمثنى هو ما دل على اثنين مما تكلم به العرب أو نزل به القرآن المبين، أو رواه الحديث أو ورد في كلام صدر الإسلام، ولا يفهم من ذلك كله شعرا أو نثرا إلا بفهمه حق الفهم [2].

---

[1] – شرح المفصل ١٣٧/٤.

[2] - مقدمة عز الدين التنوخي على كتاب المثنى لأبي الطيب عبد الواحد اللغوي (الصفحة ٨) علما بأن التنوخي حقق الكتاب المذكور وشرحه وأكمل نواقصه.

ومما تجدر الإشارة إليه أن اللغة العربية توجد التثنية في أسمائها وضمائرها وأفعالها حتى في ماضيها ومضارعها وأمرها ونهيها ومعروفها ومجهولها.

تقسيم اللغات من حيث وجود ظاهرة التثنية وعدمها فيها:

ومما لا نقاش فيه أن الألفاظ المستعملة لدى ناطقي اللغات تدل إما على معنى الوحدة، وإما على معنى الكثرة باعتبار ورود تلك الألفاظ في التركيب لأن كثيرا من اللغات لها عددان، مفرد وجمع إلا أنه هناك بعض اللغات التي لها أنظمة خاصة لا تقتصر على المفرد والجمع فحسب، بل تختص علاوة عليها بالتثنية فيكون العدد فيها ثلاثيا فتنقسم اللغات باعتبار وجود ظاهرة التثنية فيها وعدمها إلى قسمين:

١- اللغات التي لا توجد فيها ظاهرة التثنية.

٢- اللغات التي توجد فيها الظاهرة الآنفة الذكر.

وأما اللغات التي تنعدم فيها ظاهرة التثنية فتكون ألفاظها من حيث العدد إما مفردة وإما جمعا إلا ألفاظ أسماء الجمع، فإنها في الحقيقة مفردة لفظا دلت على الجماعة والكثرة.

وهذه اللغات التي عدمت فيها ظاهرة التثنية إذا عبرت عن التثنية استعملت العدد الدال على اثنين مثلا تستعمل في اللغة الإنجليزية كلمة Tow فيقال للتعبير عن هذان كتابا.

. These are Tow books

وتستعمل في اللغة التركية iki فيقال للتعبير المذكور آنفا.

.Bunlar iki kitablar

ومن الضروري الإشارة إلى أن معظم لغات العالم شرقا وغربا وماضيا وحاضرا تفقد هذه الظاهرة.

والملاحظ أن اللغة العربية انشعبت من فصيلة اللغات السامية التي راجت فيها ظاهرة التثنية فيما مضى من الزمان وقد توجد بقاياها في بعضها حتى اليوم وقد اشتركت أنظمة بعض اللغات مع العربية في استخدام التثنية منها اللغة اليونانية القديمة واللغة السنسكريتية واللغة القوطية [1].

تبين من العرض السابق أن ظاهرة التثنية وجدت في عدة لغات بينما تجردت لغات كثيرة منها وامتازت العربية بين اللغات ذوات ظاهرة التثنية لكونها أشد ارتباطا بالتثنية لأنها راجت فيها في الأسماء والضمائر والأفعال وامتزجت بنظامها اللغوي للعدد امتزاج الشحم باللحم ولم تزل التثنية عملة رائجة في نوادي كلام العرب منذ أن عرف التاريخ اللغة العربية ولا تزال كذلك ما عاش ناطق بلغة الضاد على وجه الأرض.

إن التثنية من أهم ما يشحذ ذهن السامع العربي لإدراكه تعددية الشيئين بكلمة واحدة لأنهما يتبلوران في ذهنه بمجرد سماع صيغة التثنية دون ذكر العدد الدال على اثنين لأن تصور الاثنين يصل إلى ذهنه بسهولة دون أي تردد لاعتياده تلك الظاهرة اللغوية، ولذلك من لم يعرف قواعد التثنية واستعمالها لم يتعمق في اللغة العربية ولم يستمتع بها، ولم يبلغ غاية الحظ من مطالعتها نثرا وشعرا لأن اللغة العربية تمتاز بها بين اللغات لانسجام الأصوات وانتظام الكلمات ودقة الاتزان ورنة البيان فإن كنت في حاجة إلى شاهد على ذلك فسآتيك بمثال من

---

[1] Rutledge Dictionary of language and linguistics pp 139,333,334–

كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث استعمل عدة مثنيات ببعض التركيب وهو يرغب في التسبيح قائلا: "كلمتان حبيبتان إلى الرحمان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم"[1]، ومن يرغب في المزيد من الاطلاع على الانسجام الصوتي للتثنية فعليه بالاستماع إلى من قرأ سورة الرحمن من التنزيل الكريم، وقد أشار الدكتور عز الدين التنوخي إلى ما في ظاهرة التثنية من بلاغة الكلام، وفصاحة البيان، قائلا : ويعد هذا المثنى من لطائف العربية وحسن بيانها وله في الشعر من الرنة ما يستهوي الفؤاد ولذا عد من محسنات البديع [2].

حاجة المجتمع إلى ظاهرة التثنية:

إن الحياة تكثر فيها الزوجية من المجسمات كالليل والنهار، والماء والنار، كما أنه تكثر فيها الزوجية في المجردات كالخير والشر والأمن والخوف، ويحتاج الإنسان إلى التعبير عنها إما لقضاء حوائجه أو للتعبير عن خواطره، وظاهرة التثنية تعينه على ذلك، فسبحان من خلق الأشياء والخدين والأذنين والشفتين واليدين، والقدمين وما إليها، فلو لم تكن ظاهرة التثنية لم يكن التعبير عنها كاملا، ولو كان التعبير عنها بدون ظاهرة التثنية لم يف بقدر المراد.

اعتبار بعض الناس التثنية من خصائص اللغات غير المنقحة والرد عليهم:

اعتبر بعض كتاب دائرة معارف لاروس القرن العشرين ظاهرة

---

[1]- صحيح البخاري ٨/٤٤٩.

[2]- مقدمة عز الدين التنوخي ٨.

التثنية من خصائص اللغات غير المنقحة [1]، وكيف يكون ذلك والتثنية تعبير لغوي خاص بلفظ التثنية عن شيئين وهي تمكن المتكلمين من إظهار شيئين من الأحياء والجمادات والمجردات باستخدام لفظة على صيغة التثنية ولا يكاد المتكلم يستخدمها إلا ويتشكل شيئان في ذهن السامع بالضبط الكامل ومن يعترض على هذه الظاهرة اللسانية وهو يفقدها ولا يعيها فاعذره لأنه لا يخيل إلى فاقد هذه الظاهرة انطباع شيئين عند استماعه إلى صيغة التثنية ولا يتصور العاجز عن هذه الميزة اللسانية الطمأنينة التي يشعر بها المتكلم والسامع اللذان تعودا على استخدام هذه الظاهرة.

[1] – ما تيسر لي دائرة المعارف لاروس القرن العشرين ولذلك أحيل إليها بواسطة مقدمة عز الدين التنوخي (الصفحة ٨) وقد أحال إليه كالتالي:
Larousse XX Sicele (5/105) non cultivates.